

مصر منذ تسعين سنة

صحف التاريخ

(٧)

عزمت أن امكث بضعة شهور في بلاد العجايب والغرائب . وارانى غير آسف لا اتحملة من العناء في هذه القرية وما البذلة من النفقات الكثيرة للوصول الى غرضى ورأيت انى افضل واسطة لمعرفة الحقائق عن مصر والمصريين هي الاطلاع معهم وتمشد ممشيتهم ومحارمتهم في عوائدهم مع الصبر والحزم وطول الاناة

فصر سرة الزمن العابر وعلى آثارها ومبانيها وجوامعها وشاهدها نقرأ صحف تاريخها القديم على اختلاف ثقيلاتها واحكامها السياسية قرناً قرناً . فيمداد دمشق والقسطنطينية وغيرها من مدن الشرق القديمة لم يبق منها في الوجود سوى آثار نافذة غير معروفة . في بغداد عاصمة الماديين والفرس لا يمد السامح اثرأ لهذه الام البائدة سوى بعض آثار دارسة وكذلك دمشق لا يمد فيها اثرأ اسكانها الارابيين الاقدمين سوى بعض آثار رومانية ويونانية . والقسطنطينية فقدت على اثر الفتح الاسلامي كل آثارها اليونانية ما عدا اثرأ واحداً وهو جامع اجيا صوفيا وهذه المدينة تجدد ابيتها كل عشرين سنة مرة اكثر الحرائق التي تحدث فيها يوماً فيتمير شكلها وتجدل معالمها كلها واما مصر فلا تزال قائمة فيها كل آثار فراعنتها الاقدمين وابنتهم وهياكل معبوداتهم ومصنوعاتهم حتى جشنتهم امرة فاسرة . وكذلك آثار من خلفهم من حكام اليونان والرومان والفرس والعرب والأتراك . فابنا جنت في مدنها وقرأها تجد اثرأ قديماً . وفي ابي شوارع القاهرة مررت اقرأ على جدران الجوامع وابنتها القديمة آثار حكامها السابقين من الامويين والعباسيين والفاطميين والتركمان والسلاجوقيين والايوبيين والمماليك . وابنية هذه الآثار والعالم والجوامع اتبعت فيها الهندسة الاندلسية والصقلية وارى ان هذا الطرز من هندسة الابنية ينطى الاصل انتقل اولاً من القسطنطينية الى دمشق وبغداد ومنها الى الاندلس على عهد الامويين ثم اتبع في مصر على عهد اخفاء الفاطميين . ولذلك ترى آثار ابنية الاندلسيين في غرناطة وقرطبة واشبيلية تشابه تمام الشبه هندسة الجوامع والقصور القديمة في القاهرة . واكثر من تولى مصر من الحكام المسلمين بنى جامعاً او نصراً او اقام سبيلاً او اثرأ جيداً من عمرو بن العاص الى

ابن طولون وصلاح الدين ويبرس الى الحاكم باسم الله والغوري الى امراء المماليك مما يدل على عظمة الاسلام في القرون المتوسطة

ومن الغريب ان جامع عمرو الذي بناه فاتح مصر واحد صحابة النبي والاثر الاول الديني للإسلام لم يبق منه سوى بعض جدران متهدمة ومجموع خرابات واما غيره من جوامع الامراء والسلاطين فتبنته البنيان مشيدة الاركان . وجامع عمرو في بقعة منفردة ويرة خاوية خالية بين القاهرة ومصر القديمة تدعى القسطنطينية لان هذا القائد العظيم نصب خيمته في تلك البقعة فبنت بعده حورفا المدينة الاسلامية الاولى ودعت القسطنطينية وبناه هذا الجامع على الطرز البيزنطي تحيطه الاعمدة المرمرية تستند عليها قبة عظيمة ورأيت داخله محراب الامام وهو اجمل واقدم اثر مقدس للإسلام صنع في سنة ٩٤ هجرية . ويقال في تاريخ الفتح ان حمالة بنت عشماء على خيمة عمرو وآوت فيه صغارها ولما بدأ يبنون الجامع لم يشأ فاتح مصر وقاهر الروم ان يهدم عش حمالة ويقلق راحتها فامر ان يبنى الجامع حول الخيمة وتركها آمنة مطمئنة على وكرها واولادها

وزوت بالقرب من باب النصر جامع الخليفة الحاكم بامر الله وهو الآن مجموع اطلال دارسة في فناء ارض مسورة بالخمران العالية فهذا الحاكم لم يكتف بلقب الخلافة وبلطنته المطلقة الاستبدادية على كل بلاد الشرق من العراق الى العربية وسورية ومصر بل اراد ان يشبه بتيرون في ظلمه وعشوره وكاليغولا الامبراطور الروماني في كبريائه فالاول حرق رومية ليتفرج على خراباتها والثاني ادعى الالهية وبني لنفسه هيكلًا ليمد فيه وكذلك هذا الحاكم انشأ دينًا خاصًا به وامر الناس بالسجود له بعد ان ملأ البلاد ظلمًا وجورًا

- الخمسين -

« الخمسين » وما ادراك ما هي خمسون يوماً تهب فيها الرياح الجنوبية والشرقية المحرقة المحمدة للانفاس المذيبة للاجسام ويصعب جداً على المرء ان يخرج من داره في هذه الايام قبل الساعة الرابعة حينما تهب الرياح الشمالية فتنتمش النفوس بسلمتها البحرية . واكثر الناس هنا يتقصون ايام « الخمسين » اما تحت الاقنية الارضية التي لا تصلها اشعة الشمس الحارة او في الحمامات . وعلى ذكر الحمامات اقول انها كثيرة في القاهرة مبنية على الشكل البيزنطي وفي وسط كل حمام بركة كبيرة تنصب فيها المياه بشكل يهب النظر ووقها قبة عالية متناسبة الشكل مكسوة بزجاج مختلف الالوان وحول صحن الحمام غرف عديدة لتستحمين في كل منها اجران من الرخام للياه السخن والبارد . وهناك مخادع عديدة للقتل

والفرك والتسبب والغضب . وفي رحبة الحمام امرأة ومقعد للنوم والاستراحة بعد الاستحمام
تقدم فيها النارجيلة والقهوة والمشروبات حسب عادة أهل الشرق المياليين إلى التمتع والراحة .
ومما يجب ذكره أن أكثر هؤلاء المتحمين أسماء الاجسام لا يخشى من الاختلاط بهم
خلافاً للعادات العمومية عندنا فإنه يجتمع فيها كثيرون من المرضى والمصدورين فالمتحمون
في الشرق يطلبون التمتع والنظافة وأما عندنا فيقصدون الاستشفاء .

وعند ما تهب الرياح الشمالية من البحر بعد عاصي النهار يخرج الناس من منازلهم
افواجاً افواجاً إلى الظلال والمروج والمتزهات لاستنشاق النسيم الطيب فالتساء الملمات يذهبن
إلى المدائن ويجلسن على سحارة التبور واما المسيحين واليهود رجالاً ونساءً فيذهبون إلى شبرا
ويسرحون تحت ظلال شجر الجوز أو يجلسون زمراً على المروج الخضراء أو يجلسون على
ضفاف السواقي والبحيرات . والنساء الشرقيات لمن واسطخان التلخص من السحر وضيق
الحجاب بين جدران منازلهن وهما الغمامات وزيارة التبور والرجل مها كان شديد الضيرة
على امرأتها ليس في وسعها ان يتبعها عن الذهاب إلى الحمام أو المدائن ولو في الاسبوع مرة
واحدة وهذا الامر من حقوقها بحكم العادة

وكل سائح أوروبي اتبع طريقتي في المشية الشرقية واشترى مثل جارية يجب ان يسع
بازاء عينيه ما يلقى من المصاعب . وقعت في أشد الحيرة في كيفية السير مع جاريتي . هل
امتنعنا من الخروج كبقاتي النساء وعربة الاوربي تأتي هذه المعاملة القاسية . ومن جهة اخرى
كيف ادع فتاة ساذجة جاملة عوائد البلاد غريبة ان تخرج وحدها وتسير في شوارع
القاهرة بلا رقيب يحرسها ثم اي زي تلبسه في لباسها أزي اوروبية وعلى رأسها قبعة وهذا
امر عتهن يوجب السخرية والمزح لانها جارية . ام تلبس الملاحة والبرقع وتسير مع افرنجي
جنباً إلى جنب ؟ وكان يجب علي ان احسب عواقب هذه المصاعب

وبينما كانت تفعل شعرها وتلبس ثيابها نزلت العصابة عن رأسها فأريت على جبينها
عند نبت الشعر اثر حرق مستدير على قدر قطعة القنود ومثله على صدرها تحت عنقها وقد
نقش عليه وشم ازرق يمثل قرص الشمس ولا اعلم هل كان ذلك من ضرور الزينة في بلادها
ام صفة التفاس الذي اسرها . وقيل لي ان التفاسين يسمون جواربهم كما يسم الرطلة
مواشيهم وغنمهم لتعرف انها ملكهم . وكان ترجماني قد قال لي انه يحب لي ان ارد الجارية اذا
وجدت فيها عيباً ولكن نفسي الالية تأتف الالتجاء إلى هذه الطريقة المعية وخصوصاً لان
هذه الحروق ولو كانت قبيحة المنظر يمكن ان تسير بصحابة على الجبين او بحيلة من الذعب

او بقصد على العنق - وكانت الجارية قد قصت خصلة من شعرها وجعلت غرة على جبينها فلم يمد يري عيبه - وكان انهما محزوماً منذ انصهر للتحني بالخرام وكفاها ورجلاها مصبوغة بالحناء على عادة نساء الشرق

•••

وعند النساء سمعت خادمي ابرهم بناديني ونهبت منه ان زائراً اتي لثابتي فزلت ورأيت اليهودي يوسف جالساً في المذبح يتظرفي وهو يدخن فقال لي انيت لبارتك وقد بلني انك اشتريت جارية رغماً عن نصحي لك - واني لا اتصد سوى خيرك - وربما غششت في الثمن لان التراجمة يتفقون غالباً مع « الجلابة » على سرقة الاجنبي - فقلت له ربما كان ذلك - فقال ولا بد ان عبداً لله ترجماك اخذ من النحاس كيكاً على سبيل السمرة - وقلت ما العمل فليس في وصي رد ما فات - قال اذا شئت ان تبيع الجارية وتخلص منها حيناً ترجع الى بلادك هل تظن ان النحاس يستردها منك بالثمن الذي اشتريتها منه قلت ومن قال لك اني سايعها اذ رجعت الى بلادي - قال لو اتبعت نصيحتي لكنت عقدت زواجك على خاة قبطية من البنات الرواتي عرضن عليك ولكنك اتصدت كثيراً من المال والنقات - قلت اني لا اريد ان ارتبط بزواج ديني حسباً طلب مني - قال ولكنك لا تصدم ايجاد وسائل اخرى وكان يجب ان تلتفت لي - وفي امكاني ان اسم لك في زواج تجدده متى شئت ولا يكلفك نفقات كثيرة - قلت وكيف ذلك - قال ننش على رجل فقير صطوك او خادم صغير من الاقباط او اولاد العرب يرضى بقصد الزواج بالفتاة التي نعيمك على حسابك ثم يطلقها ويتركها لك بدون ان يرى وجهها ويمكنك ان تجد هذه الفتاة كما شئت ابدالاً للمرأة وهذا الزواج المتعار لا يكلفك في كل مرة سوى مال قليل

فطار صوابي من هذا الكلام المنابر لروح المدلل والشرائع الانسانية وغلى الدم في عروقي ومهمت ان اصنع هذا الرجل الا اني كنت غيظي واظهرت عدم الجلالة ثم قممت ضحكاً فالسائح في الشرق - وخصوصاً في مصر يجب ان لا يتعجب من امر ولو كان مدحاً مستغرباً ثم اوضح لي يوسف بالتفصيل حقيقة هذه المسألة وان كثيرين من الاوربيين اتبعوها - وان اكثر النساء للفتيات لا يرون بأساً في الزواج على هذه الطريقة اذ يجدن رجلاً يظمنه ويكسوهن لكي يتخلصن من قمة حاكم مصر الذي نفي كل اللومسات الى الصعيد الاعلى وحرم على كل امرأة عزباء او ليست ذات بعل ان تكن وحدها ان لم تكن بمملوكة - وعلمت من مصدر ثقة انما كان في مصر منذ عشر سنين على اثر خروج الحملة الفرنسية عدد كثير من

النساء المرمسات حتى ان المشايخ علماء الدين قاموا يطلبون من الحكومة اعدادهم وباطال
 منازل القبور المرمية لكن الحكومة لم تصنع الي شئ كما لانها تستفيد منهم اموالاً طائلة بما
 تفرغه عليهم من الضرائب . ونكي ترضي العلماء ابنتهن الي المطرية في ضواحي مصر .
 فتفانت الشرور اكثر من ذي قبل وكان كثيرون من الناس يتكفرون زوجاتهم واولادهم
 ويقيمون مع العاهرات في تلك الضاحية فقام جماعة من العلماء المتدينين وعرضوا على الحكومة
 دفع الضرائب السنوية التي تأخذها من موالء النساء وانهم يتبرعون بها عن طيبة خاطر
 بشرط ان تظهر مصر منهم فامر الباشا حينئذ بنفي كل العواهر الي اسنا في الصعيد الاعلى .
 واصبحت الآن هذه البلدة طيبة القدعة بؤرة القبور والنساء ومحطاً للسياح والاجانب عندما
 يبرون من هناك لزيارة الآثار القديمة وشارت مدينة اسنا كابوى ثانية (١) وقد شيدت فيها
 القصور واتنى فيها اولئك النساء غيباً وجوارى وحلى ثينة على حساب السياح الاربيين
 وتأكدت ان صاحبنا يوسف لا يقصد من تكرار زيارته في وكثرة مشوراته والنظام
 باخلاص الصداقة لي سوى منفعته الشخصية . فقلت له في أثناء الحديث ان ما دفنته ثمتاً
 لجارية وترتيب البيت وفرشته اضغف ماليتي وسرت مضطراً الي اتباع الاقتصاد . فقال لي
 ليحك وضعت بين يدي الخلة الاكياس التي دفنتها ثمتاً لجارية فكنت في مدة وجيزة ارجعتها
 لك اربعة اضغافها بجيرة ورق التوت لاني اتاجر بهذا الصنف مع بعض شركاء فنشترى
 الورق بالخلعة من اصحاب الاملاك وهو على الشجر ثم نبيعه بجزء اثمان غالبه للمزارعين الذين
 يربون دود الحرير ولكن يلزمنا رأس مال ندفعه قديماً للورق . والنقود في مصر قليلة
 جداً حتى ان المتوسط المتداد للقائدة القانونية ٢٤ في المائة ولكننا في تجارتنا هذه نبيع في
 المائة ١٠ او ١٥ . ولما لم يان شي جواباً قال لي . والآن عندي لك نصيحة اخيرة لا اتصدقها
 سوى خيرك وهي ان لا تدع ترجمانك عبد الله يكلم الجارية او يأتلف معها ولا يحمل له شيئاً
 للاجتماع بها لما ينهان من وحدة الجنسية والدين فربما افسد اخلاقها الساذجة او شوش افكارها
 وجعلها تفر منك وربما فرت من عندك يوماً ما والتجأت الي سيد آخر يجمعها من رجل اجني
 فهذا الكلام جعل في قلبي قلقاً ومهما رأيت شيئاً من الصواب في نصيحتي هذه ولو لم
 يقصد بها سوى النكاية بترجماني لكوني اشتريت الجارية بواسطة من غير ان استشير .

(١) كابوى مدينة في ايطاليا اشتهرت منذ اقدم بالقداد والقبور ولم تزل الي الآن تسمى ببناسي
 الاخلاق والآداب نزهة الصغار من جميع البلاد وهي منظر رحال السياح من جميع انحاء اوروبا وكلمة
 كابوى في النجيات اصححت من مترادفات القبور والنساء

وحقيقة الامر اذا كان يصعب على الشرقي المحافظة على زوجته فكذلك بالاحرى يصعب عليّ وأنا اجنبي ان احافظ على فتاة غربية عتي جنساً وديناً ولغة واحلاقاً . والى الآن لا اعلم شيئاً من امرها سوى اسمها . هل اقتني عبداً خصياً (انا) يحافظ عليها ويراقبها في خروجها ودخولها او هل اطلقها الحرية والاستقلال في العمل كصاحبة رجل فرنوي حر . ان يوسف اليهودي هذا يخدمني من ترجماني ولكن التعلفة تقضي عليّ ان احذرهما كليهما معاً . وكان عبد الله قد تركني في الصباح وذهب الى السويس ليستقبل بعض الانكليز القادمين من الهند فمزمت عند رجوعه ان اسرفه من خدمتي اقتصاداً لمرتبتي وفكرت في ان بدمه عتي يضطري للاهتمام بدرس اللغة العربية او التقاط بعض عبارات ضرورية من الجارية تكفي لتبادل الكلام بيننا . قال اللورد بيرون ان افضل واسطة لمن يريد ان يتكلم لغة امرأة يعيش معها مفرداً ولا يستمد الا على بعض كتب ابتدائية . وحقيقة ان التمرن على الكلام افضل من الانكباب على النجرات والترانيم . ولما انصرف يوسف من عندي صمدت الى غرقتي فرايت زينب واقفة امام النافذة المطلّة على الشارع نطع بيننا ويساراً من وراء « المشربة » فاقتربت منها وهي لا تشمر ورأيتها تحدق بنظرها الى بيت مجاور وكان هناك ضابطان تركيان جالسان عند مدخل الدار بدخنان فادركت ان وراء ذلك خطراً ادبياً يجب تلافيه ولما اردت ان انهما بطريفة لطيفة ودية ان تبعد عن النافذة امتنع عليّ النطق بكلمة عربية تعبر عن رغبتي . وفكرت ان كلمة « طيب » التي لا اعرف سواها تؤدي عكس المراد فخطرت على بالي اداة النفي « لا » فوقفت بازاء الجارية ووضعت كفي على جبهتي وقلت لما « لا لا » فحدثت بي تحديقاً يقرب الى البلاهة ورأيت انها لم تفهم قصدتي فقبضت على يديا برفق وقدتها الى المقصد واومأت اليها بالجلوس ثم وضعت يدي عليّ في مشيراً اليها ان قد حان وقت الاكل . وبعد قليل ناداني طباخي مصطنع فخرجت ورأيتها حاملاً مائدة مستديرة وعليها الحياق الاكل فقلت له « بيونو بيونو » اي حسناً فقلت واومأت اليه بالانتظار ثم دخلت وانتهرت زينب اشارة ان تضع القباب على رأسها فقلت ودخل مصطنع ووضع السفرة وخرج واغلق الباب

وكان بين اسنان الاكل وجاجة مطبوخة بالارز وقلناس ورؤس بعسل كبيرة قائمة في مرق منبيل بالخردل فوضعت كرميين حول السفرة وجلست على احدها واومأت اليها بالجلوس فظهرت الابهاء وحولت رأسها الى النافذة فظننت انها لا تتكلم من الاكل وهي على كرمي عالٍ والسفرة واخشة فنهضت واحضرت وسادة ووضعتها بدلاً من الكرمي واشرت

اليام خلوس فزادت اباه وتصوراً قلت ما بلغتني هل تريدني يا عزيزي اسكنة ان تموتي جوعاً
فنت ذلك وانا عاندتها لم تقم كلمة واحدة ولكنني عبرت عن عواضلي بجرها . . .
وامسيتها ما العمن كيف اتفاهم معها تجملت ارمي اليها ان تجلس وتأكل مروداً لفظة
« طيب طيب » وكل ذلك لم يقد شيئاً لانها خلت بحولة وجهها عني واخبراً بعد الاحاح
قالت لي « ما فيش » فلم انهم قصدنا فطننت بعد التفكير ان الثاة جاوية وربما كانت على
دين الخنود الثرامة وهو لاه يجرهون ذبح الحيوانات ويمتنعون عن اكل لحومها ولا يقتاتون
بسوى الاغذية النباتية . ولكي اتحقق هذا الامر اخذت قطعة من الخبز وقيلتها ووضعتها على
رأسي باحترام مروداً اسم « براما » اله الخنود . الا أنه ظهر لي انها لم تقم شيئاً من هذه
الرواية الايمانية (التوسيم) وقمت في سرري على الناس عبد الكرم لانه باعني طيراً حيللاً
ولم يقل لي بما يقتات . فقدمت لها قطعة خبز واشمرت اليها ان تأكلها فوفعت يدعا علامة الابه
وقالت « ما فيش » وخطر على بالي ما جرى في باريس منذ بضع سنين فان احد اصحاب
المراقص احضر من الهند بعض اراقصات ولكن يمتنع عن الاكل في المطاعم العمومية ويحضرن
طعامهن بايديهن من الاغذية النباتية . فمزمت ان اخرج مع الجارية بعد الغذاء الى التندق
لاستطعم كنه امرها بواسطة احد التراجمة وخطر على بالي ان اذهب اولاً الى موطني جان
ولكن رأيت من عدم البياقة والادب ان ادخلها الى حانة يجتمع فيها كثيرون من العامة .
واخيراً فكرت في مدام بونوم صاحبة المكتبة الفرنسية واذا ذلك شمع من الشارع فرع اجراس
صغيرة فهضت زينب واطلت من النافذة فهضت على اثرها ورأيت غلاماً يقود قطعاً صغيراً
من الماعز الخلوبية في اعتناق بعضها الجلاجل فأومأت اليه باصبعها وصرخت « أيرا أيرا »
فعلت انها تريد شيئاً من الخليب . فنادت الغلام وامرت مصطفي ان يملأ اناة من الخليب
فاضهرت الجارية السرور والارتياح وقالت للسلام « تعال بكرا » فحضت انها تدعوه للحبي .
في الغد ايضاً ثم مدد هذا بدءه مخوي وصرخ « الفلوس الفلوس » فقصدت الطبايح عن الخليب
ومد يده ثانية وقال « بتشيش يا سيدي » فقلت له مقلداً الجارية « تعال بكرا » . فقلت وقشدر
كلمتين جديدتين وهن « الفلوس وتعال بكرا » . وكانت الامثلة الاولى من درس اللغة العربية
ثم اومأت اليها ان تشج باللااة وتخرج معي فاظهرت الابه والنور وقالت « انا عاوزة
حبرة » فقلت ان هذه الجاوية تستكف وهي مملوكة رجل افريقي ان تظهر في الشارع
يزي النساء الفلاحات من العامة فاظهرت لما في دوري النور والابه وقتت لها « ما فيش »
ديتري نقولا